مجلة سطور

يوليو 2006

تفنيد المغالطات حول معاناة اليهود فى ظل الدولة العثمانية والعرب

العصر الذهبى للتسامح

د. رءوف عباس

كانت الدولة العثمانية آخر الإمبراطوريات الشرقية الكبرى التى ضربت بجذورها فى العصور الوسطى، وعمرت حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين، وامتدت أراضيها –فى وقت من الأوقات– لتشمل ما حول البحر الأسود ومعظم بلدان البلقان، إضافة إلى الأناضول والبلاد العربية بمشرقها ومغربها (فيما عدا المغرب الأقصى). وشملت هذه الأراضى ما كان يعرف بالإمبراطورية البيزنطية، وسلطنة سلاجقة الروم، وسلطنة المماليك فى مصر والشام وتوابعها بالجزيرة العربية واليمن، والعراق، والكيانات العربية بشمال أفريقيا. ورغم كونها آخر الإمبراطوريات فقد ضمت شعوبا تنوعت أعراقها وثقافاتها، السلاف، والصرب والماجيار، والإغريق والأرمن والمغول والترك والكرج، والأكراد، والعرب والبربر، بل وبعض الفرس .

ومع هذا التنوع فى الأعراق والثقافات، كان هناك تنوع فى الديانات: المسيحية بمختلف كنائسها، واليهودية بمختلف مذاهبها، والإسلام بمختلف فرقه يتصدره السنة، وكانت نسبة من غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية تتوازن مع نسبة المسلمين من سكانها. وما كان باستطاعة مثل هذه الإمبراطورية أن تظل محتفظة بأراضيها لولا السياسة الطائفية الرشيدة التى اتبعتها فيما سمى بنظام الملة، و بموجب هذا النظام كانت كل طائفة دينية فى الدولة مستقلة بإدارة شئونها الدينية والثقافية والاجتماعية، تطبق شرائعها على أتباعها، إلا من رغب منهم غير ذلك، وتصدر الدولة المراسيم الخاصة بتعيين الرؤساء الدينين الذين يختارهم أهل الملة، ليلعبوا دور الوسيط بين الطائفة والدولة، ولا تتدخل الدولة فى شئونهم ماداموا يسددون الضرائب، ويصدعون لأوامر الإدارة، ويعبرون عن ولائهم للسلطان.

ولم يقتصر ذلك على عاصمة الدولة (استنابول) أو البلقان واسيا الصغرى أو القوقاز، بل طبق هذا النظام فى سائر ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية. فلم تشهد الدولة العثمانية ظاهرة التمييز والاضطهاد الجماعى التى تفشت فى روسيا وبلاد وسط أوروبا (بالنسبة لليهود على وجه الخصوص)، ولم تحدث فيها حركات تطهير عرقى إلا فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى عندما تعرض

الأرمن للمذابح الشهيرة بسبب مطالبتهم بالاستقلال عن الدولة. أما الصراع الطائفى فى جبل لبنان فى مطلع ستينيات القرن التاسع عشر فكان نتاجا لازمة اجتماعية وتدخلات خارجية أضفت على الصراع طابعة الدموى، وهيأت الفرصة للتدخل الأجنبى.

هذه مقدمة لابد منها للحديث عن اليهود فى الدولة العثمانية، وإذا كانت قد طالت نوعاً، ما فذلك لتصحيح مقولات مغلوطة شاعت عن الدولة العثمانية تأثراً بسياسة التعصب القومى التى مارستها حكومة الإتحاد والترقى ذات التوجه القومى التركى ضد القوميات الأخرى فى الدولة فى العقدين الأولين من القرن العشرين وهى السياسة التى كانت إرهاصاً لتفكك الدولة بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. وواقع الحال أن غير المسلمين من رعايا الدولة عاشوا حياة أكثر استقراراً أمناً من تلك التى عاشها إخوانهم فى الدين فى بلاد أوروبا (وخاصة اليهود) حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر على اقل تقدير.

ولعل اليهود كانوا يحظون – فى الدولة العثمانية– بمكانة خاصة تعود إلى الوضع التاريخى المتميز لليهود فى المناطق المفصلية على طرق التجارة الدولية فى آسيا الصغرى (الأناضول) وسواحل البلقان المطلة على بحر إيجة والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا ويرجع ذلك الوضع المتميز إلى دور اليهود المنتسبين إلى دار الإسلام فى التجارة الدولية سواء تلك القادمة من وسط آسيا على طريق الحرير أو تجارة البحر المتوسط هنقضلاً عن احتكارهم لأعمال الصيرفة، وإقراض الأموال، والحوالات المالية، وبراعتهم فى أعمال الوكالة التجارية بين دار إلا سلام وأوروبا (وخاصة المدن الإيطالية). ودعم اليهود هذا الدور الإقتصادى بإقامة علاقات خاصة مع السلطة الحاكمة ورموزها منذ العصر الفاطمى حتى نهاية العصر العثمانى تستند إلى المشاركة فى إدارة الأمور المالية للدولة، واستثمار أموال السلاطين والأمراء وحكام الولايات فى التجارة، والشراكة التجارية مع هؤلاء ومدهم بما يحتاجون من قروض فى مقابل الحصول على مزايا إدارية ومالية (كالالتزامات وخاصة التزام الجمارك ودار الضرب) وغيرها.

ولكن ذلك لا يعنيأن اليهود (جميعاً) كانون يرفلون فى حلل النعيم فى ظل الدولة العثمانية أو الدول الإسلامية التى سبقتها ،أو أنهم جميعاً كانوا من أساطين التجارة والمال، فقد كان السواد الأعظم من اليهود فقراء يشتغلون بالحرف اليدوية، ومنهم صغار الباعة والعمال وحتى الشحاذين كما أنهم لم يكونوا طائفة واحدة. فمنهم القراءون الذين تمتد جذورهم فى مصر إلى ما قبل الفتح العربى والذين تأثروا فى ممارستهم وعقائدهم الدينية بمنهج الفقة الإسلامى، ومنهم الربانيون (الأصوليون) الذين كانت لهم الرئاسة الدينية الرسمية للطائفة وهؤلاء وأولئك هم يهود الشرق (السفارديم) ذوو الأصول السامية الخالصة .

غير أن قيام مملكة اسبانيا الحديثة فى نهاية القرن الخامس عشر بعد تصفية الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس، وسياسية التطهير الدينى التى اتبعتها المملكة الكاثوليكية الوليدة من خلال محاكم التفتيش

التى قدم لها المسلمون واليهود، فكان القتل نصيب من يتمسك بدينة مما أدى إلى نزوح جماعى للهاربين من محاكم التفتيش إلى بلاد المغرب العربى. وهكذا خرج السواد الأعظم من يهود الأندلس من المسلمين يلتمسون النجاة بأنفسهم وأموالهم وعقيدتهم. ولكن أحوال المغرب الإقتصادية –عندئذ– لم تكن لتستوعب هذا الحشد من المهاجرين .

فيمم اليهود وجوهم شطر الدولة العثمانية فهاجروا إليها على دفعات متواصلة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر حتى أصبح يهود الدولة العثمانية (فى نهاية القرن الثامن عشر يفوقون أعداد اليهود فى دول العالم الأخرى. وعندما فقدت الدولة العثمانية ساحات من أراضيها بالبلقان وغيرها مما كان يسكنها يهود، كان تعداد اليهود فى الدولة العثمانية عام 1900 يقترب من النصف مليون نسمة ليشكل بذلك خامس اكبر تجمع يهودى فى العالم بعد روسيا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا، وكان يهود الدولة العثمانية –عندئذ– يفوقون يهود بريطانيا وفرنسا معاً من حيث العدد وكان يهود الدولة العثمانية يمثلون التجمع الطائفى اليهودى الأهم فى العالم من النواحى المادية والروحية والثقافية .

وفى ا لقرن التاسع عشر تدفقت هجرة جديدة من اليهود الأوربيين (الإشكنازيم) الذين التمسوا فى بلاد الدولة العثمانية ملجأ آمناً يمارسون فيه حياتهم وعقيدتهم بحرية تامة، جاء معظمهم من وسط أوروبا والمجر وروسيا، وهى الهجرة التى جلبت معهاً فريقاً من العلماء والأطباء والمهندسين. واحتل اليهود فى القرن التاسع عشر مواقع هامة فى الإدارة العثمانية وخاصة المالية والتمثيل الدبلوماسى فى سفارات الدولة بأوروبا وفى التعليم بالمدارس العثمانية العاليا وفى مجال الفنون.

وللتمييز بين اليهود الأصلاء من رعايا الدولة العثمانية، وأولئك الذين هاجرو إلى بلاد الدولة من الأندلس وغيرها من بلاد أوروبا أطلق الأتراك على اليهود المهاجرين اسم " يهود الدونتمة" أى اليهود الذين قدموا بالسفن. وكما كان من بين اليهود المهاجرين العلماء والمفكرون والتجار والمملون، كان من بينهم أيضاً العمال والحرفيون والفقراء من عمال الشحن والتفريغ فى الموانى وغيرهم. وقد كان لدعاة الفكرة القومى الغربى من اليهود تأثيرهم على رجال الإتحاد والترقى، بل إن نشيد جماعة الإتحاد والترقى وضعت كلماته على موسيقى أغنية فولكلورية يهودية اسبانية كانت تتحدث عن إخاء المسلين واليهود فى الأندلس، وجاء نشيد جماعة الإتحاد والترقى ليؤكد الإخاء بين اليهود والمسيحيين والترك لكونهم عثمانيين يتضامنون معاً فى السراء والضراء.

ورغم أن ذلك الموقف التضامنى مع جماعة الإتحاد والترقى كان قاصراً على حفنة من المثقفين وكبار الموظفين اليهود بينما كان فقراء اليهود وخاصة عمال الموانى فى واد آخر، ينظمون الإضرابات ضد استغلال رأس المال وعنت السلطة، رغم ذلك شاع فى بعض الكتابات العربية تضخيم لدور "يهود الدونتمة" (أى المهاجرين اليهود)، وصياغة دور تآمرى لهم لتقويض حكم السلطان عبد الحميد الثانى

(أكثر حكام الدولة استبداداً)، من اجل تصفية الخلافة الإسلامية، والكيد للإسلام، ولفتح الطريق أمام الصهيونية .

وللأسف الشديد يتناقل الكتاب هذا الهراء عن بعضهم البعض بل ويعرف طريقة إلى الكتب الدراسة فى بعض البلاد العربية ليربى جيل بل أجيال على هذه الأكاذيب، فليس صحيحاً أن السلطان عبد الحميد الثانى كان يقف حجراً عثرة فى طريق الصهيونية، فالمستوطنات الصهيونية الأولى التى أقيمت عند طبرية فى فلسطين كانت من أراضى الميرى (اى أراضى الدولة) بيعت للصهاينة لإقامة المستوطنات الأولى، وبيع غيرها من أراضى الدولة دون أن يحرك عبد الحميد الثانى ساكناً، وليس صحيحاً انه لم يوافق على هجرة اليهود واستقرارهم فى فلسطين بل وافق على الهجرة من حيث المبدأ على أن يتوزع المهاجرون على الولايات العربية بالشام .

وتبقى حقيقة لا مراء فيها هى أن يهود الدونتمة كانوا لا يؤدون الدعوة الصهيونية ولا يميلون إلى تأييد فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، ولم يقتصر ذلك على اليهود المهاجرين إلى الدولة فيما بين القرون السادس عشر إلى التاسع عشر، بل كان ذلك موقف يهود مصر والعراق من الدعوة الصهيونية، وكل هذه المواقف ثابتة فى العديد من مصادر الفترة وصحفها .

إن محاولة إبراء ذمة السلطان عبد الحميد اللثى زوراً وبهتاناً على يد دعاة إحياء الخلافة الإسلامية لا يخدم قضيتهم فى شىء، فقد استخدم الرجل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، لتكريس استبداده ولضرب الحركة الدستورية والتنكيل بالأحرار ويكفىأن يقرأ هؤلاء "طبائع الإستبداد" لعبد الرحمن الكواكبى الذى كان من ضحايا عبد الحميد الثانى. ألم يكن عبد الحميد الثانى هو الذى أصدر مرسوم عصيان احمد عرابى نزولاً على طلب الإنجليز مما كان له آثاره السلبية على تماسك الجيش المصرى ضد الغزو البريطانى طالما كان ذلك دعماً لقائد شق عصا الطاعة على أمير المؤمنين .

وليس غريباً أن يلتقى المتطرفون على اختلاف توجهاتهم عند نقطة واحدة – فإذا كان دعاة إحياء الخلافة الإسلامية يعتبرون اليهود وراء جماعة الإتحاد والترقى التى خلعت عبد الحميد الثانى تمهيداً لتصفية الخلافة، بينما واقع الحال استمرار الخلافة حتى عام 1924 عندما تم إلغاؤها على يد مصطفى كمال مؤسس تركياً الحديثة التى لا شأن لها بالدولة العثمانية، وجاء ذلك من خلال حرب تحرير وطنية ضد القوى الأجنبية التى احتلت الأناضول بهدف تفتيت الأناضول أيضاً كما فتت البلاد العربية. وجاءت إقامة الجمهورية التركية الحديثة فى سياق لم يكن هناك معنى أو مبرر لاستمرار مؤسسة الخلافة، ولم يكن إلغاء الخلافة وارداً على الإطلاق فى برنامج أو مبادئ أو أدبيات الإتحاد والترقى عند قيامهم بالانقلاب ضد عبد الحميد الثانى عام 1908.

ويلتقى غلاة الكتاب الصهاينة مع هؤلاء عندما يدعون أن اليهود فى دار الإسلام كانوا مواطنين من الدرجة الثالثة يفضل عليهم المسيحيون، وأنهم كانوا عرضة للاضطهاد بمناسبة بعض طقوس أعيادهم الدينية، مما عرضهم للمذابح على أيدى المسلمين الذى فرضوا عليهم زياً خاصاً لتمييزهم إمعاناً فى الإذلال ولا يشير هؤلاء – من رقيب أو بعيد– إلى كتاب جويتاين "مجتمع البحر المتوسط" الذى نشر بالإنجليزية منذ ما يزيد على ربع القرن فى ثلاثة مجلدات نشر فيها وثائق الجنيزا التى كتب بالعربية بحروف عبرية وتبين كيف كان اليهود يسيطرون على تجارة البحر المتوسط من قواعدهم فى مصر والمغرب والأندلس، وكيف عاشوا حياه حسدهم عليها يهود أوروبا .

لقد شهد القرن التاسع عشر انتعاشاً للطوائف اليهودية فى الدولة العثمانية وولاياتها العربية، وخاصة أن قوانين الإصلاح العثمانية ساوت بين المسلمين وغير المسلمين منذ عام 1856 وفتحت أبواب تولى وظائف الدولة والخدمة العسكرية أمام جميع الرعايا بما فيهم اليهود. كما أدى قدوم موجة الهجرة الإشكنازية من وسط أوروبا إلى ازدهار النشاط الثقافى لليهود فأسست المدارس للبنات بالقاهرة والإسكندرية والقدس وسالونيكا وا ٍستانبول ودمشق وبغداد والدرونيل فيما بين السنوات 1840 – 1891. وتولى الإنفاق على هذه المدارس جمعية الإئتلاف اليهودى الدولى، والجمعية اليهودية الألمانية كما أسس بعض أثرياء اليهود السفارديم المدارس لأبناء طائفتهم وأوقفوا العقارات للإنفاق عليها.

وفى مجال العقيدة اثرى الحاخامات الربانيون الفكر الدينى اليهودى بكتاباتهم سواء كانت بالعبرية أو العربية وكان ليهود مصر والشام والعراق الدور الأساس فى تلك الكتابات الفقهية .

كذلك صدرت الصحف المختلفة بالعربية والتركية والفرنسية والعبرية والبدش (لغة يهود روسيا وشرق أوروبا) بالعواصم المختلفة للولايات العثمانية، وكان للكتاب اليهود مساهماتهم فى الأدب التركى والأدب العربى شعراً ونثراً .

وهكذا كان الوجود اليهودى فى الدولة العثمانية يعبر تعبيراً دقيقا عن الوضع الخاص الذى كان لليهود تحت جناح الحضارة العربية الإسلامية، كما يكشف عن قدرة تلك الدولة متعددة الأعراق والثقافات والديانات على أن تحقق نموذجاً للتعايش يقوم على احترام خصوصية كل ديانة مع ترابط مصالح الطوائف جميعً ها فى إطار دولة ربطت بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وعصف بها عصر القوميات والتوسع الإمبريالى .